بكم تبيع ؟!

للأديب الفاضل ثروت أباظه

كان اليوم يوم جمعة ، والشتاء يرسل نذره لطيفة حيناً ، عنيفة أحياناً ، ولا عاصم من تلك النذر إلا الشمس تضحى لها حيث نتوقعها ...

وبالجيزة قهوة توثقت الصلة بينها وبين الشمس : فهي دفء ونعيم ومنظر ، لجأتُ إليها وحدى مترقباً صديقاً على موعد .. جلست أنتظر فإذا رجل منتفخ الأوداج ، غليظ الشفتين ، حليق اللحية والشارب ، أسمر الوجه ذو شعر لولبي يأبى على الطربوش أن يطمئن على الرأس ، قصير القامة منبعج فى امتلاء ، يحاول أن يتأنق ما أتاح له جسمه ذلك ، وقليلا ما يتيح ... إنه عبدالشكور افندى .. استغفر الله .. بل عبد الشكور بك ... ولم لا ؟! ألم يهبط من عربة فخمة يقودها بنفسه ؟ ! ألم يغدُ صاحب أملاك وعمارات ...لا... إنه عبد الشكور بك . وياشا إذا لزم الأمر ! كنت أعرفه معرفة قليلة ، ويظهر أنه هو الآخر جاء على موعد ، فهو يقصد إلى منضدة قريبة ولكنه حين مر عليّ لم ينس هذه الإنحناءة التى تحاول أن تكون أرستقراطية فيقف دون ذلك قوام أفق ! يفعلها على أى حال تمرين رياضة جسدية ، على أنه إن لم تكن تحية ودية ، ويقصد إلى المنضدة فيجد عليها رجلا أنيق الملبس ، أشيب الفودين ، طويل القامة ، مليح القسمات ، يقف ويسلم على عبد الشكور بك فى حركات مهذبة رشيقة ، ويجلس الرجلان ؛ وأظل شاخصاً إليهما حتى يأتى صديقى ويسألنى عمن أنظر إليه فأحدثه حديث عبد الشكور الذى كان كما سمعت بائع دقيق ، ثم .. ثم صار عبد الشكور (بك) منذ سنتين ! فيؤكد لى هذه القالة ويخبرنى أن الرجل الجالس إليه موظف كبير بوزارة...وأنه يتمتع بسمعة لا يحسد عليها ... التفت إلى رفيقى وقلت :

— أتعرف كلمة هذا العهد ؟

— ماذا تقصد ؟

— ألم تعلم ياصديقى أن لكل عهد كلمة تميزه من سائر العهود ، كلمة يخلقها الجو العالمى وتتنبها ألسنة الناس ، كلمة عهدنا هذا: بكم تبيع ؟ . بكم تبيع شرفك ؟! بكم تبيع كرامتك ؟ وخلقك ماذا يساوى .؟!» تسمع الآن هذه الأسئلة وتسمع بجانبها ناصحا يقول للمسئول : « قل ! أخبره ! إنه سيدفع » وآخر يقول للسائل : « ادفع ! إنه سيبيع ! » ولكل من الناصحين فائدته من بذل هذه النصيحة...

— ولكن ألا ترى معى يا أخى أن هذا السؤال لا يعترض إلا صغار الموظفين والذين لا يملكون إلا القليل مما تصبو إليه نفوس السائلين ، أما الغالب فى كبار الموظفين فضمير كبير تماه احترام الموظفين الصغار .

— ضمير !! أنت تفهم مدلول هذه الكلمة ، ولعل كبار الموظفين يفهمونه ؛ ولكنه فى نظر عبد الشكور شىء معوّق يجب أن يزول .. فتراه حين يرى ثورة الرجل الكبير يعرف أن الضمير فى هذه المرة غالى السعر قليلا فهو يبذل ويبذل حتى تخمد ثورة وتبدأ مفاوضة .. مفاوضة غير مقطوعة .. فالموظف الكبير لا يقبل الدخول فى هذه المفاوضة إلا إذا كان السعر المبذول باهظاً والغنى الجديد يعلم أن الضمير إن لم يكن بالسعر المفروض فهو بما يقاربه، وكأننى بابن الرومى قد رأى الشارى والبائع فأرسل هذين البيتين:

إن للحظ كيمياء إذا ما ... مس كلباً أحاله إنسانا

يفعل الله ما يشاء كما شا ... ء متى شاء كائناً ما كانا

كلا الرجلين كلب من كلاب الحظ ..

— هل تريدنى أن أفهم العصامية والنشاط الاقتصادى مجرد كيمياء من الحظ .. لا يا أخى أنت مخطىء . إن عبد الشكور رجل عظيم انتشل نفسه من وهدة الفقر فعمل وعمل حتى تسنم ذروة الغنى . أنا لا أفهم مطلقاً أن يشرع الكتابُ أقلامهم لمحاربة قوم عملوا فربحوا . أنا لا أفهم ...

— اسمع لى قليلا حتى تفهم ... تقول إن الكتاب مخطئون حين يهاجمون هؤلاء . ولو لم أكن وثيق الصلة بك لأيقنت أنك لم تكن حياً فى أيام الحرب ، ولكن القريب أنك كنت معى وكنا نتشاكى الغلاء معاً .. فلا شك أنك كنت حياً ..

العصامية — ياسيد — شىء نقدره — نحن الشرقيين — نقدره إذا كان عن طريق شريفة .. والتاجر الذى يربح فى السوق الشريفة يحتاج إلى لباقة وكياسة ، ومادام يربح شريفاً فلا حاجة للربح الدنس، فهو يحتقر السوق للوثبة ويحاربها ، عندنا من هؤلاء